

# منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في (المقدمة) و(كتاب العبر)

الدكتور محمد الطالبي

لم يكن ابن خلدون مؤرخاً كبيره من المؤرخين . والسبب الأساسي في ذلك هو أنه لم يكن مؤرخاً فحسب . كان أيضاً مفكراً ، بل انه كان مفكراً قبل ان يكون مؤرخاً . وكان ابن خلدون خاصة - وهذا ما لا يؤكد ابداً بما يكفي من اللاحاح - رجلاً من رجال السياسة . من اولئك الرجال الذين برزوا الى الميدان ، وجربوا مسؤوليات الاحكام وخيبتها ، في اوضاع اشتد تعقدها في فترة حاسمة من فترات الحضارة العربية الاسلامية .

ومما يجب ان نؤكد ايضا هو ان تكوين ابن خلدون لم يكن ، انطلاقاً وباديء ذي بدء ، تكوين مؤرخ . ان كل الكتب التي كتبها قبل المقدمة تدل على خلاف ذلك . كان اتجاهه اولاً نحو الفلسفة باشراف استاذه الابل (1) . فلخص في سن العشرين من عمره ، مؤلف الرازي : ( كتاب محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكام والمنتكلمين (2) وقد بلغنا هذا الملخص بخط ابن خلدون (3) ، وهو ( لباب المحصل في اصول الدين ) ، وطبع بتطوان سنة 1952 . وله كتب اخرى (4) واكبت الفترة

(1) انظر : N. Nassar, Le maître d'Ibn Khaldun : al-Alibi, dans studia Islamica, Paris 1964, XX, 103-115, 1905.

(2) ط . القاهرة 1905

(3) مخطوط رقم 1614 بمكتبة الأسكوريال ، اسبانيا ، وهو مؤرخ في : 19 صفر 1351.4.27/752

(4) وهي : شرح البردة للبوصيري ، ملخص في المنطق ، مؤلف في الحساب ، عنة ملخصات لتأليف ابن رشد . وشرح لفصيده لابن الخطيب في أصول الفقه . وردت هذه الارشادات في الاحاطة لابن الخطيب . وفي هذا دلالة على ان كل هذه الكتب الفت قبل سنة 1364/865 وهو التاريخ الذي تم فيه تأليف الاحاطة .

الأولى من حياته كلها تدل على ان همه لم يكن في التاريخ . كما انه استقر في النهاية بالقاهرة كقاض واستاذ يدرس الفقه المالكي والحديث (5) لا علوم الماضي .

ان التقاء ابن خلدون بالتاريخ كان اذن عرضا في حياته . ومنعرجا مفاجئا بقدر ما كان حاسما . هذا المنعرج كان في ملتقى طريقين : طريق المغامرات السياسية وطريق التأمل في الماضي قريبه وبعيده . فالطريق الأولى قد سلكها بنفسه . وحط رحاله في المغرب في كل مراحلها التي تسودها المؤامرات . والاغتيالات . والخيانة . والانتصارات الفاشلة . والاجهاسات . والطريق الثانية تلوح متشابكة المسالك . ملتوية الممرات كثيرة المتاهات . معقدة في صعودها ونزولها . في اضوائها وظلماتها . وقف ابن خلدون في ملتقى الطريقين يتأمل . فيبعد ان ارتقى في النشاط السياسي بكل ما يملك من اندفاع الشباب وحماسه وطموحه . وبكل ما يوفره له رصيد أسرته . اراد - وقد نيف على الأربعين - ان يعتبر ويقفهم .

فاعتزل طوال اربع سنوات ( 776 - 780 ) / ( 1375 - 1379 ) بقلعة بني سلامة (6) وهكذا التقى - بل قل اصطدم - بالتاريخ . ولم تكن هذه العزلة - كما قد يتوهمه البعض - تقيية سياسية بقدر ما كانت لحاجة نفسانية ملحة قد سبق أن راودته من حين لآخر (7) .

أحس ابن خلدون بالحاجة الى الفرار من الضوضاء . وإلى محاولة فهم ما كان يجري من احداث وكيف تفهم الأحداث ما لم توضع في احداثيات الزمان والمكان . اي في اطارها التاريخي . وهكذا اصبح ابن خلدون مؤرخا . لم يكن التاريخ من قبل حرفة له . ولم يسبق ان الف فيه قط . ولم يكن التاريخ في الحقيقة قصده المباشر كغيره من المؤرخين . وهم كثرة . وانما كان وسيلة لتقصّد ابعاد كان التاريخ اداة للاجابة عن تلك الأسئلة الكثيرة والملحة التي كانت تشغل باله . فالتاريخ بالنسبة اليه لم يكن غاية ونهاية في حد ذاته . كما هو الشأن بالنسبة للمؤرخين المحترفين .

ولقد بقي ابن خلدون يتذكر جيدا تلك الحالة النفسانية . او الروحانية . التي اعترته وهيمت عليه في عزله . حين كانت تجيش في خلده المعاني التي افرغها في وعاء المقدمة على شكلها الأول حين تدفقها . ثم ما فتىء فيما بعد يهذبها ويضيف اليها الى آخر حياته حتى اكتملت على الصورة التي بلغتنا . وكانت تلك الحالة . لاحتدامها ولما واكبها من اكتشافات - او قل تجليات - تشبه تماما حالة الالهام . وهكذا يصفها في تعريفه (8) :

( وانزلوني باهلي في قلعة بني سلامة ... فاقمت بها اربعة اعوام . متخلياً عن الشواغل كلها . وشرعت في تاليف هذا الكتاب . وانا مقيم بها . واكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب . الذي اهديت اليه في تلك الخلوة . فسالت فيها شاييب الكلام والمعاني على الفكر . حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها . وكانت من بعد ذلك الفئحة الى تونس كما نذكره . )

(5) انظر الدرس الذي القاه بالمدرسة الفمحية في ( التعريف ) . ص . 285/729

(6) توجد بالجزائر . بولاية وهران . على 6 كم من قرية فرنده .

(7) انظر مؤلفنا : Ibn Khaldun et l'histoire, Tunis 1973, p.11-12.

(8) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة 1951/1370 . ص 228 : 229

ماذا اكتشف ابن خلدون في عزلته ؟ هل اكتشف علم التاريخ ؟ كلا ! انما هو اكتشف علما لم يكن معروفا من قبل . فاعطى هذا المولود الجديد اسم علم العمران . وله وضع المقدمة . وفي ذلك انعراج بين نقطة الانطلاق . ونقطة البلوغ .

عند الانطلاق . كانت شواغله بدون شك تتعلق بالمنهجية التاريخية (9) . ذلك انه . لسلامة التأمل في الحوادث . فريبها وبعيدها . حاضرها . وماضيها . لا بد من التأكد من صحة ما يروي الينا وينقل . فوجب البحث عن منهجية توفر هذه الصحة . غير ان هذا البحث ادى الى نتيجة لم تكن مفترضة مسبقا . او متوقعة حتما عند الانطلاق . لقد ادى البحث الى اكتشاف ( علم مستقل بنفسه ) (10) . وكم يقع هذا للعباقرة من اصحاب العلوم صحيحها وغيره ولئن كان هذا العلم الجديد لا بد منه للمؤرخ لكونه من العلوم الأساسية المساعدة له في معالجة فنه . فان ذلك لا يزيل عنه بحال الاستقلال والقيام بالذات . وكان ابن خلدون واعيا لذلك كامل الوعي بل ان عبارته تدل على مدى اندهائه لهذا الاكتشاف المفاجيء . وعلى اعترازه بطرافة وخطورة ما اهدى اليه بحدس يشبه الالهام الالاهي . وان كان هو يعترف ان هناك من مهد له السبيل (11) ومن اهمهم ارسطو . فهو لا يؤكد بالبحاح سبقه واختراعه .

قائلا :

( وكان هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع . وهو العمران البشري والاجتماع الانساني . وذو مسائل . وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته (12) واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان او عقليا . واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة . غريب النزعة . غزير الفائدة . اعثر عليه البحث . وادى اليه الغوص (13)

ويضيف انه ( كانه علم مستنبط النشأة ) (14) . ثم يزيد في اللاحاح مؤكدا من جديد : ( ونحن الهمننا الله الى ذلك الهاما . واعتزنا على علم جعلنا سن بكره وجهينة خبره (15) فان كنت قد استوفيت

---

(9) وذلك واضح في كامل القسم الأول من المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي . القاهرة 1384/1965 ج 1 ص 349 - 413

(10) المقدمة ج 1 ص 413

(11) المقدمة . ج 1 ص 415/417

(12) لقد شرح علي عبد الواحد وافي في تحقيقه للمقدمة هذه العبارة بقوله : ( ويقصد ابن خلدون من كلمة ( العوارض الذاتية ) او ( ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته ) ما تقصده نحن من كلمة ( القوانين ) ويتضح قصده هذا مما كتبه في الفصل الخاص بعلم الهندسة من الباب السادس من مقدمته اذ يقول : ( هذا العلم هو النظر في المقادير . اما المتصلة بالخطوط والسطح والجسم . واما المنفصلة كالاعداد . وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل ان كل مثلث فزاياه مثل قائمتين . ومثل ان كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منها متساويتان ... ) ج 1 ص 241/242

(13) المقدمة ج 1 ص 413/414

(14) المقدمة ج 1 ص 414

(15) المقدمة ج 1 ص 417 حيث يشرح المحقق اسفل الصفحة المثليين

مسائله . وميزت عن سائر الصنائع انظاره وانحاءه . فتوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء من احصائه . واشتبهت بغيره مسائله . فللناظر المحقق اصلاحه . ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل ووضحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء (16)

ان ما نقلنا . قول فصل بقلم المؤلف وعبارته . لا يترك مجالاً للشك في ان المقدمة . وان انت كمقدمة لكتاب العبر . انما هي في جوهرها وعاء لعلم جديد . وانه اذا ما اردنا ان نجيد فهمها . وفهم العلم الذي وضعت له . يجب ان نفهمها قبل كل شيء في حد ذاتها وفي كل ثرائها . فابن خلدون قد وضعها للكشف عما يلحق ( العمران البشري والاجتماع الانساني ) ( من العوارض والأحوال لذاته ) . اي للكشف عن النواميس الطبيعية التي تحرك الكون وتدفعه في طريق التاريخ . وقد سبق (17) ان بينا ان ( العوارض الذاتية ) في اصطلاح ابن خلدون انما هي القوانين التي بنيت عليها العلوم الصحيحة وفي مقدمتها علم الهندسة .

كيف حصل هذا الاكتشاف الخطير الذي خلد ذكر ابن خلدون واحله اسمى مكان بين مفكري البشرية ؟

قلنا ان شواغله كانت اولاً منهجية . وانه كان يرغب ايضا من التاريخ فهم الواقع الذي مارسه . وهو يبسط هذه الشواغل وهذه الرغبة في كل وضوح . في التوطئة (18) التي استهل بها تأليفه وكذلك في مقدمة (19) المقدمة . اي الكتاب الأول . وان كان هذا الوضوح لا يخلو من التردد الذي لا ينفلت منه كل واضع لعلم جديد .

يبدأ ابن خلدون فيشيد بفن التاريخ . ويلاحظ انه . وان هو ( في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ) (20) فهو ( في باطنه نظر وتحقيق . وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ) (21) وهو كذلك كله ( اصيل في الحكمة عريق (22) . فيربط هكذا . بمجرد ما يضع القلم بين انامله ويشرع في تأليفه . بين التاريخ و ( التعليل ) - اي الفهم عن طريق استقصاء الأسباب - و ( الحكمة ) . اي الفلسفة .

ثم يأخذ يستعرض بسرعة ما انجز من قبل . ويخص بالذكر ابن اسحاق ( 150 هـ / 767 م ) والطبري ( 224 - 839/310 - 923 ) . وابن الكلبي ( 819/204 ) والواقدي ( محمد بن عمر ( 130 - 747/207 - 823 ) . والأسدي ( 200 هـ / 815 م ) والمسعودي ( 346 هـ / 957 م )

---

(16) المقدمة ج 1 ص 418/417

(17) تعليق 12

(18) المقدمة ج 1 ص 349 - 361

(19) المقدمة ج 1 ص 408/362

(20) المقدمة ج 1 ص 351

(21) المقدمة ج 1 ص 351

(22) المقدمة ج 1 ص 351

من اصحاب التواريخ العامة (23) وابن حيان ( 377 - 987/469 - 1076 ) والريفيق (24) ( - بعد 1026/417 ) من اصحاب التواريخ المقيدة بقطر او عصر (25) . ويضيف : ( ثم لم يات من بعد هؤلاء الا مقلد بليد الطبع والعقل ، او متبلد ينسج على ذلك المتوال ، ويحتذى منه المثال ، ويذهل عما احالته الأيام من الأحوال (26) ومعنى ذلك ان التاريخ ناله الجمود في نظره ، وهو في حاجة الى تجديد . وهذا ما جره الى وضع كتاب رسم له كفاية ان يكون ( مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة ، واسلوبا (27) .

ثم يعطينا التخطيط العام للكتاب ، الذي رتبته ( على مقدمة وثلاثة كتب (28) :  
المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والاماع بمغالط المؤرخين .

الكتاب الأول : في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب .

الكتاب الثاني : في اخبار العرب ، واجيالهم ودولهم ، منذ مبدا الخليقة الى هذا العهد . وفيه الاماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم ، مثل : النبط ، والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل ، والقيط ، واليونان ، والروم ، والترك ، والافرنجة .

- الكتاب الثالث : في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة ، وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول (29) .

والذي ينبغي ان يلاحظ أولا هو ان ما نسميه مقدمة ، فابن خلدون يسميه كتابا أول - ومستقلا - موضوعه العمران ، يتلوه كتاب ثان ، خص به العرب ، ويقع في الطبعة الحالية في اربعة اجزاء ، ثم كتاب ثالث ، يقع في جزئين ، خص به البربر . فهذه كتب ثلاثة كل منها منفصل بموضوعه ، وان كانت لا تخلو من صلة فيما بينها فالمقدمة الحقيقية لا تزيد إذن عن نحو اربع واربعين صفحة (30) . وشرح لنا ابن خلدون ان هذه المجموعة المكونة من مقدمة ، وثلاثة كتب منفصلة بمواضيعها ، قد اعطاها في النهاية - بعد ان أتمها في المشرق فاستوعب أخبارا لخليقة فيها استيعابا (31) - عنوانا عاما جامعا لألواحها الثلاث وهو .

(23) المقدمة ج 1 ص 352

(24) قد ورد اسمه محرفا في كلا الطبعتين ( بيرت 1967 ، ص 4 وتحقيق على عبد الواحد وفي القاهرة 1965 ج 1 ص 353 ) حيث نقرا : ( ابن الرفيق ) فيما يخص هذا المؤرخ الافريقي

انظر : دائرة المعارف الاسلامية . النص الفرنسي ج 4 ، والفصل الذي نشرناه بمجلة ( أريكا )

A. propos d'Ibn al-Rachiq, Arabica, XIX (1972). p.86-96 :

(25) المقدمة ج 1 ص 353

(26) المقدمة ج 1 ص 353

(27) المقدمة ج 1 ص 355

(28) المقدمة ج 1 ص 355

(29) المقدمة ج 1 ص 355 - 356

(30) المقدمة ج 1 ص 362 - 408

(31) المقدمة ج 1 ص 356

( كتاب العبر ... ) وفي هذا العنوان العام تتلخص وتتلور شواغل المؤلف وأهدافه : لقد كان يبحث عن الفهم والعبرة ، اذ التاريخ بالنسبة اليه ، كما سبق ان بينا ( اصيل في الحكمة عريق ) .  
كان ابن خلدون تحذوه الرغبة الملحة للفهم والاعتبار ، وذلك لأنه لم يكن انطلاقا ، مؤرخا محترفا قاصرا همه على الجمع والتسجيل . وكان كما اكدنا ، قد اهتم اولا بالحكمة عن طريق الرازي وابن رشد واستاذاه الأبلي . وكان عالج السياسة وعرف المرارة وجرب الفشل . وكان خاصة كغيره من اصحاب اليفظة من مثقفي عصره - لا سيما من سلبت منهم ديارهم (32) او من ساروا في الأرض كالعبدري (33) فقاوسا بحسرة عمق الانحطاط - قد عرف مضاعفة الحيرة والقلق ، لما شاهد من احتضار الحضارة الاسلامية في ايامه ذلك الاحتضار الذي جعل من وطن اجداده باشبيلية ارضا مسيحية . ولقد زادت هذه الحيرة تازما صدمة الطاعون الجارف الذي ذهب بابويه (24) وما نال المغرب من انهيار ديمقرافي (35) يتحدث عنه بمرارة ، ذلك الانهيار الذي افرغ البلاد من اهلها ، وعطل عمراتها . كل ذلك حز في نفس ابن خلدون ، واذكى فيها رغبة الفهم وتقييم الوضع ويظهر ذلك بوضوح لا يقبل الشك في حديثه عن الدواعي التي دعت الى تأليف كتابه ، قائلا :

( واما لهذا العهد وهو اخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت احوال المغرب الذي شاهده وتبدلت بالجملة ... هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب باهل الجبل ، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحايها . وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ... وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ... واذا تبدلت الأحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليفة والآفاق وأجياها ، والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ، ويقفوسلك المسعودي لعصره . ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده (36) .

كان ابن خلدون يشعر اذن بشدة انه يعيش فترة ازمة كونية وانقلاب كلي . فحسب انه سيقفواثر المسعودي في تدوينه ( احوال الخليفة . ) لكنه أراد ان يكون مسعوديا أكثر دقة ونقدا في تسجيل الحوادث . تلك كانت نقطة الانطلاق في بحثه .

وهكذا اخذ في المقدمة الحقيقية ، والوجيزة الحجم كما بينا ، يستعرض ( مغالط ) المؤرخين (37) بمن

(32) انظر بحثنا ( الهجرة الأندلسية الى افريقية ايام الحفصيين ، في مجلة الأصالة ، عدد 26 ، الجزائر 1975 ، ص

90 - 46

(33) الرحلة المغربية تحقيق محمد القاسي ، الرباط 1968 ، ص 64 - 237.65 - 239 ....

(34) انظر مؤلفنا : Ibn Khaldun et l'histoire, Tunis 1973, p. 7.

(35) انظر بحثنا :

L'effondrement démographique au Maghreb du XI au XIIes, dans les Cahiers de Tunisie, N° 97-98 (1977) p. 50-61.

(36) المقدمة ، ج 1 ص 405 - 406

(37) المقدمة ج 1 ص 363 - 398

سبقه . ولم يستثن منهم المسعودي رغم اعجابه به (38) بل هو يقسو عليه بالحاح خاص (39) وهذه ( المغالط ) العديدة هي التي دعت ابن خلدون للبحث عن اسبابها . وتلك مرحلة اساسية في كل علم تسبق ونهيء البحث عن العلاج .

فانضح له أولا أن هناك عوائق تعوق دون الموضوعية عامة . ومنها الانحياز الى مذهب معين والالتزام به (40) او الاقطاع الى حاكم او اسرة لأسباب مادية (41) لكن حتى في حالة توفر ارادة التقيد بالموضوعية فان هناك سببا اساسيا ورئيسيا يجبر الى الوقوع في الغلط والانزلاق في الوهم . وهذا السبب هو الاكتفاء بالاعتماد على مجرد الرواية بدون سابق تمحيص يقيني . كان هذا الاعتماد اساس اصحاب العلوم النقلية كلها . سواء كانوا ( ائمة النقل (42) من المؤرخين والمفسرين . او من المحدثين وغيرهم . والحال ( أن الأخبار اذا اعتمدت فيها على مجرد النقل... فربما لم يؤمن فيها من العنود ومزلة القدم . والحيد عن جادة الصدق (43) لا سيما اذا كان هذا النقل ( غنا وسمينا (44) والذي جر كامل المؤرخين الى التماهي في الاعتماد على الروايات اي على منهجية الحديث (45) دون منياس خاص بفنهم . هو ذلك (التقليد (46) المشفوع بالغفلة الذي ساد أساليبهم في كل مؤلفاتهم . فاذا ما تم لابن خلدون اذن اكتشافه لعلم العمران . اي لما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية . فانما كان ذلك أولا وعلى الخصوص نتيجة لثورته على ( مجرد النقل ) و( التقليد ) . والتامة منياسا خاصا يناسب طبيعة التاريخ .

يلاحظ ابن خلدون ان منهجية الحديث . التي اساسها التاكيد من ثقة الرواة قد وضعت خاصة للعلوم الشرعية وما يتبعها من أمر وهي . ويعترف انها . في ميدانها هذا المحدود . لا تزال صالحة ومفيدة . بل لا وسيلة غيرها . لكنه - وهنا تكمن نقطة التحول - يؤكد ان التاريخ ليس من نوع العلوم الشرعية . فهو يفصله عن بقية العلوم النقلية . محدثا بذلك ثورة في اساليب وتفكير عصره . وذلك لأسباب :

منها أولا ان التاريخ ليس بجامد قار . وانما هو في اساسه حركة نمو . ( ومن الغلط الخفي في التاريخ

---

(38) المقدمة ج 1 ص 405 حيث يعتبر انه ( صار اماما للمؤرخين يرجعون اليه )

(39) المقدمة ج 1 ص 363 ، 368 ، 380 ، 410 ، 412

(40) المقدمة ج 1 ص 409 حيث يعتبر ان ( الميل والتشيع غطاء على عين البصيرة )

(41) المقدمة ج 1 ص 410 حيث يذكر من أسباب تحريف الحقيقة ( تقرب الناس في الأكثر لأصحاب النجلة والمراتب ... والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه او ثروة ) . وسنعود الى ذلك .

(42) المقدمة ج 1 ص 362

(43) المقدمة ج 1 ص 362

(44) المقدمة ج 1 ص 362

(45) انظر فيما يخص هذه المنهجية واستخدامها في ميدان التاريخ

R. Brunschrig, Ibn Abd al-Hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes : étude critique, dans AIEO VI (1947) p. 108-155.

(46) المقدمة ج 1 ص 405

الذهول عن تبدل الأحوال ، في الأمم والأجيال ، بتبدل الأعصار ومرور الأيام . وهوداء دوى ، شديد الخفاء ، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد ينفطن له الا الاحاد من اهل الخليقة . وذلك ان احوال العالم والامم ، وعوائدهم ونحلهم ، لا تدم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الأيام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق (47) والأقطار ، والازمنة والدول . سنة الله التي قد خلت في عباده .

ثم هو يجد حجة أخرى - وهي حجته الحاسمة - في تقسيم البلغاء للكلام الى خبر وانشاء . ومعلوم ان الخبر ، في تعريفهم ، ما يصح فيه التصديق والتكذيب ، ويدخل في ذلك مجموع الشهادات وكل انواع الاخبار على اختلاف اقسامها . واما الانشاء فهو ما لا يصح فيه تصديق ولا تكذيب ، كالأمر والنهي ، والاستفهام والدعاء ، وما الى ذلك .

فأما ما هو من قبيل الانشاء (48) - وتدخل ضمن ذلك خاصة الشرائع ، وهي أوامر ونواه ، وعقائد فلا سبيل للتأكد من صحته عن غير طريق التأكد من ثقة الرواة فيما ينقلونه . وقد وضع علماء الدين ، للتأكد من ثقة الرواة علم التعديل والتجريح (49) وألفوا في طبقات الرجال .

وأما ما هو خبر ، فان توثيق الرواة - عن طريق التعديل والتجريح - لا يضمن فيه السلامة من الوقوع في أفحش واوضح خطأ وليس ادل على ذلك من تلك السلسلة الطويلة من ( المغالط ) السافرة التي وقع فيها مؤرخون - من صنو الطبري والمسعودي وغيرهما ممن لا يختلف اثنان في عدالتهم - والتي اسهب فيها ابن خلدون كما سبق ان اشرنا الى ذلك .

وفي ذلك في نظره دلالة قاطعة على ان ما يدخل من الكلام في نوع الخبر عرضة بنوع خاص للتحريف ، عمداً وغير عمد ، من وجوه عدة .

فابن خلدون يبين ان ( الكذب متطرق للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه (50) . فمن هذه الأسباب التي تطرأ عن غير عمد ، ذاك ( الذهول عن تبدل الأحوال ) الذي سبقت الاشارة اليه ، ومنها أيضاً المذهبيات التي أدت وما زالت تؤدي ، الى أنواع من الباس الحق بالباطل ، عن قصد وغير قصد ، عندما تتحول الى التزام ، او الى تعصب يعمي ويضم . فابن خلدون يعبر عنها ( بالتشيعات للآراء والمذاهب ) ، ويضيف ان ( التشيع غطاء على عين البصيرة (51) . ومنها تقرب الناس في الأكثر لاصحاب التجلة

---

#### (47) المقدمة ج 1 ص 399 - 400

---

(48) هل فات ابن خلدون ان الانشاء ايضاً يدخله الكذب من نفس السبل التي يتطرق منها الى الخبر - وقد حللها - ام هل هو احجم دون فتح باب نقد الشريعة . ووضعها ، كما فعل بالنسبة للتاريخ ، موضع الشك المنهجي ؟ !  
(49) وفي ذلك يلاحظ ابن خلدون : ( وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها متى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة

والضبط ) المقدمة ج 1 ص 413

(50) المقدمة ج 1 ص 409

(51) المقدمة ج 1 ص 409



والمراتب بالثناء والمدح ، وتحسين الأحوال ، وإشاعة الذكر بذلك ، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة (52) ومعنى ذلك وضع المؤرخ والتاريخ - بالاغراء المادي - في خدمة السياسة على حساب الحقيقة ، وهو ما لم يخل منه عصر ولا نظام .

فما الحيلة إذن ؟ ! لقد ثبت أن منهجية الحديث ، المقامة على نقد السند من طريق التعديل والتجريح ، غير مجدية - بمفردها - في حصر الحقيقة . فما فائدة النظر مثلا في السند عندما يكون الخبر المنقول خرافة شائعة مستحيلة الوقوع عقلا ؟ ! ومثل ذلك المسعودي ، بكل جد ، في شأن تمثال الزر زور الذي برومة ، تجتمع إليه الزرايزر في يوم معلوم من السنة ، حاملة للزيتون ، ومنه يتخذون زيتهم (53) .

يترتب عن ذلك أولا أن نقد السند ، إن كان شرطا ضروريا ، فإنه غير كاف ولا أساسي . بل يجب أن يأتي في مرحلة ثانية وتكميلية ، بعد التأكد مسبقا من امكانية وقوع الحدث المروي في حد ذاته ، وذلك بوسائل أخرى انفع واجدى .

ويعبر ابن خلدون عن هذا بقوله : ( ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع . وأما إذا كان مستحيلا ، فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عدّ أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل (54) .

فلا بد إذن من تعويض منهجية الحديث بمنهجية أخرى البق بالخبر ، يأتي فيها نقد السند في الرتبة الثانية . هذه المنهجية الجديدة التي اكتشفها ابن خلدون هي منهجية التاريخ . وفي هذه المنهجية يحتل الرتبة الأولى ( قانون المطابقة ) ، الذي عنه سيتفجر علم العمران ، ذلك العلم المستقل بنفسه ، و ( المستنبط النشأة ) ، الذي هو موضوع الكتاب الأول . وهكذا يعرض ابن خلدون هذا القانون الذي يلعب في تفكيره دورا محوريا :

( وأما الاخبار عن الواقعات ، فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه ، إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة . وإذا كان ذلك ، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار ، بالامكان والاستحالة . أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له . وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذ ، فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه . وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه . وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا .

( وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فإنه ذو موضوع ، وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو

(52) المقدمة ج 1 ص 410

(53) المقدمة ج 1 ص 412

(54) المقدمة ج 1 ص 412/413

مسائل . وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته (55) . واحدة بعد أخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم . وضعيا كان او عقليا (56) .

ان قانون المطابقة الذي يحتل في منهجية ابن خلدون التاريخية مكان حجر الزاوية . يستلزم أولا النظر ( في الاجتماع البشري الذي هو العمران ) . ولقد ألح المؤلف على هذه الفكرة في مواطن عديدة سابقة (57) . والغرض من هذا النظر هو استخلاص ما يلحق هذا الاجتماع ( من الأحوال لذاته ) بمقتضى طبعه . ولقد رأينا ان هذه العبارة وشبهاتها تؤدي في مصطلح ابن خلدون معنى القوانين الطبيعية اليوم عندنا . ذلك ان ابن خلدون كان يريد ان يحكم ، في ( تمييز الحق من الباطل ) ، ( اصول العادة . وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران (58) . او ما يسميه ايضا ( طبائع الكائنات (59) او ( طبائع الموجودات ) (60) . أو ( طبائع الأحوال في العمران ) (61) ويعتبر ( هذا ابلغ في التمهيص من كل وجه يعرض (62) . فتأكد لديه وجوب الكشف عن هذه ( الطبائع ) ، او النواميس التي توجه كل شيء في حياة البشر : السياسة - وقد ذاق حلوها ومرها - والأحوال الاجتماعية ، والاحداث التاريخية . ورأى انه لا بد في كل ذلك ( من قياس الغائب منها بالشاهد (63) ، والاطلاع على ( اختلاف الأمم والباقع والأعصار في السير والاخلاق ، والعوائد والنحل ، والمذاهب وسائر الأحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، او بون ما بينها من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ... (64) وهكذا اقتنع ابن خلدون انه لا بد ان يجمع بين علمي الحاضر والماضي ، أي ان يكون في نفس الوقت عالما اجتماعيا ومؤرخا . وهكذا التقى فيه البعدان اللذان عنهما تفتتت ( العبقريّة ) .

ان تطبيق قانون المطابقة جره الى الكشف عن القوانين الاجتماعية . وذلك كي يجعل منها ، ( بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه ) ، ( معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه ) . وهذا هو . حسب عبارته غرض الكتاب الأول من تأليفه ، ذلك الكتاب الذي اعتدنا ان ننتعه . توسعا ، بالمقدمة .

وخلاصة القول ان أهل الحديث قد ركزوا جهودهم على النقد الخارجي . واكتشف ابن خلدون اهمية النقد الباطني . ذلك انه قد اتضح لديه ان النقد الخارجي - مهما كان مفيدا او ضروريا - فهو غير كاف

---

(55) قد سبق شرح هذه العبارة ( تعليق 12 ) وهي تفيد ما نعبر عنه بالنوانيس الطبيعية

(56) المقدمة . ج 1 ص 413 - 414

(57) المقدمة ج 1 ص 362 - 363 . 398 - 410,399

(38) المقدمة ج 1 ص 362

(59) المقدمة ج 1 ص 362

(60) المقدمة ج 1 ص 398

(61) المقدمة ج 1 ص 410

(62) المقدمة ج 1 ص 410

(63) المقدمة ج 1 ص 362

(64) المقدمة ج 1 ص 399

بالنسبة لما يدخل من العلوم النقلية في نوع الخبر من الكلام حسب اصطلاح البلغاء . فان كانت الشريعة جملة انشاء ، فالتاريخ محض خبر . فهو في حاجة الى معيار خاص ومنهجية اليق به . فلقد استنبط المحدثون قوانين نقد السند ، التي يعتبرها ابن خلدون ناجحة في ميدانها ، أي بالنسبة للشريعة والانشاء عامة . ووضعوا لها علم التجريح والتعديل ، والفوا تبعا لذلك في طبقات الرجال . واستنبط هو قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية فوضع لذلك بدوره علم العمران . استهدف فيه الكشف عن النواميس التي تسير وتتطور طبقها الأحداث والمجتمعات . هكذا ولدت . على يد ابن خلدون ، العلوم الاقتصادية والاجتماعية . وافردت لأول مرة في تاريخ البشرية بالتأليف عن حدة .

هذه العلوم وزعها ابن خلدون على ستة فصول (65) محكمة التنسيق

( 1 ) ( الفصل الأول في العمران البشري على الجملة ) : أي البيئة وتأثيرها في الكائنات البشرية ، انتولوجية واطروبولوجية .

(2) ( الفصل الثاني في العمران البدوي ) أي في الحضارات الريفية القائمة غالبا وعادة على الزراعة . والتي كثيرا ما تكون بدائية . فهي تركز على ما نسميه اليوم بالقطاع الأول .

(3) ( الفصل الثالث في الدول ، والحلافة ، والملك ) : أي في المؤسسات السياسية والادارية التي تنشأ مع كل حضارة مهما كانت بسيطة . وتنظم الحياة الاجتماعية .

(4) ( والفصل الرابع في العمران الحضري ، والبلدان ، والامصار ) : أي في الحضارات التي عندما تبلغ النضج تزدهر خاصة في المدن . وتتركز على ما نسميه اليوم القطاع الثاني . وتبلغ هكذا اسمى المراحل رقيا وتطورا .

(5) ( الفصل الخامس في الصنائع ، والمعاش والكسب ) : أي في العلوم الاقتصادية ، التي لا بد من تحليلها لفهم ( العمران الحضري ) . وهذه العلوم تهتم كامل أنشطة القطاعين الثاني والثالث . وتزداد تعقدا بازدهار العمران .

(6) ( الفصل السادس في العلوم ، واكتسابها ، وتعلمها ) : أي فيما تفرزه الحضارات ، بقدر ما تبلغ من الاكتمال . من انواع الثقافة ، التي تكتسب بالبحث ، وتورث وتكتنز بالتعلم ، فتتموهكذا نموا متواصلا .

فهذا تخطيط سلمي ، لا اعوجاج ولا تشويش فيه ، بل هو يخضع الى منطق لا ينكسر . وفيه دلالة على شمول النظرة بالنسبة لكامل المظاهر الاجتماعية . فالمحور الذي تلتزم حوله كل القضايا يرتكز دائما على التساؤل الملح عن السر في قيام الحضارات ، وذبولها وموتها ثم قيام حضارات أخرى تحلها ، وتذهب

---

(65) المقدمة . ج 1 ص 419 . تم . في غضون الكتاب ، ورفعا للالتباس ( انظر تحقيق علي عبد الواحد وافي . ج 1

ص 226 - 229 ، 234 - 235 ) ، تحمل هذه الفصول اسم ( باب ) ، وكل باب من هذه الأبواب ينقسم بدوره الى مقدمات وفصول . وابت هذه الأبواب مختلفة الحجم على هذه الصورة : الباب الأول ( ج 1 ص 420 - 576 ) ، الباب الثاني ( ج 2 ص 577 - 630 ) ، الباب الثالث ( ج 2 ص 631 - 950 ) ، الباب الرابع ( ج 3 ص 965 - 1026 ) ، الباب الخامس ( ج 3 ص 1027 - 1106 ) ، الباب السادس ( ج 3 ص 1107 - 1258 ) ،

شوطا ، أو أشواطاً ، أبعد بالمشعل الذي تسلمه من سابقتها ، ( سنة الله التي قدخلت في عبادته (66) . وهذا التساؤل ، الذي يعطي لكل الفصول وحدة الأسلوب والاتجاه في بسط القضايا ومعالجتها ، وطيد الصلة بالتجربة الوجودية التي عاشها المؤلف ، واوحت له بالعزلة ، والتأمل ، والتأليف . بقي علينا الآن ، وقد ضبطنا علاقة كتاب ابن خلدون في العمران بمنهجية التاريخ ان تضبط هذه العلاقة بينه وبين الكتائين اللذين خص بهما المؤلف التاريخ الصرف ، تاريخ العرب ، وتاريخ البربر . ماذا ستكون ، في الزمان وفي المكان ، حدود هذا التاريخ الذي كان ابن خلدون يريد ان يكتبه ، وماذا سيكون مضمونه ؟ كان تردده شديدا في كلا المستويين .

كان في أول امره ، عندما اعتزل بقلعة بني سلامة ، يفكر في تاريخ المغرب فحسب وذلك تحت تأثير الحوادث السياسية التي شارك فيها ، والسجون التي دخلها ، والأمراء الذين خدمهم واستخدموه ، والفراغ البشري الذي قاساه في تنقلاته - وللطاعون فيه دوره - وخلو البلاد من عصبية ، اوقوة سياسية في مستوى الاضطلاع بمتطلبات الساعة ، وغير ذلك من الخيوط الظاهرة والخفية التي حاكت الازمة التي عاشها - وكان المغرب يتخبط فيها فقاده كل ذلك نحو الاعتزال للخلوة بنفسه قصد التأمل والتأليف . ولم يكن اذاك يطمع في ان يكون أكثر من مسعودي المغرب ، وهو عن ذلك يعبر بقوله :

( وانا ذاكر في كتابي هذا ما امكنتني منه في هذا القطر المغربي ، اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب ، واحوال اجياله وأمه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه ، وان الأخبار المتناقلة لا توفي كنهه ما أريد منه . والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد ، كما ذكر في كتابه ، مع انه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء احواله ، وفوق كل ذي علم عليم (67) .

كان ابن خلدون هكذا يعتزم في أول امره الاختصار على احوال المغرب . ثم حدث ان رحل الى الشرق ، وبه استقر . فاتيحت له فرصة اكمال معلوماته ، واثراء تجاربه فاذا بتاريخ المشرق يطفى على تأليفه ، فيستأثر منه بسهم الأسد ، أي بضعفي تاريخ المغرب حجبا (68) . ومن حسن حظنا فقدسها ابن خلدون عن حذف النص الذي سبق - الذي يضبط نقطة الانطلاق ويكشف تردده - واكتفى بالتنبيه الى الظروف التي يسرت توسيع حدود تصنيفه وآفاقه ، فضمن ذلك في خطبة الكتاب ، التي كانت طبعا آخر ما حرر بعد ما تم التأليف واكتمل ، واصبح هكذا من اليسير عرض اهدافه وتخطيطه . وفي ذلك يقول :

( ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره . فأفقدت ما نقص من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من

---

(66) انظر ما سبق ، ص 8 وانظر ايضا . Ibn Kaldun et l'histoire, surtout p. 110-117.

(67) المقدمة ، ج 1 ص 406 - 407

(68) اربعة اجزاء لتاريخ العرب ، وجزءان لتاريخ البربر

الأقطار ، واتبعت بها ما كتبته في تلك الأسطاز . وادرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من امم النواحي ، وملوك الأمصار والضواحي ، سالكا سبيل الاختصار والتلخيص ، مفتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الأسباب على العموم ، الى الأخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة استيعابا ، وذلك (69) من الحكم النافرة صعبا واعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا ، واصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا (70) .

وحيث ان هذا التأليف ، في شكله النهائي وفي الكتاب الثاني منه ، لم يغفل الى جانب العرب ( منذ مبدا الخليقة ) ، ( الاملاخ ببعض من عاصره من الأمم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين ، والفرس وبني اسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم ، والترك ، والافرنجة (71) ، فان ابن خلدون اعتبره - مهما كان الماعه الى غير العرب والبربر محدودا - تاريخا عالميا ، ( استوعب اخبار الخليقة استيعابا ) حسب تعبيره ، مع الاختصار الضروري في مثل هذه الموسوعات (72)

ونلمس ايضا نفس التردد في مستوى المضمون . ويظهر ذلك في تعريفه للتاريخ فهو ، في مستهل

---

(69) في ط . بيروت 1967 ، ص 8 : ( وذلك ) وهو خطأ واضح

(70) المقدمة ، ج 1 ص 356

(71) المقدمة ، ج 1 ص 356

(72) يمكن الاطلاع على تحليل محتوى الكتابين ، الثاني والثالث ، في دراسة علي عبد الواحد وفي التي مهد بها لتحقيق المقدمة ( ج 1 ص 144 - 151 ) الكتاب الثاني في اخبار العرب ومن عاصره : يقع في اربعة مجلدات ( ج 2 الى 5 من ط بيروت 1967 ) ج 2 ص 3 - 703 اصل الخليقة وانساب الأمم المختلفة ، وفي ذلك ابن خلدون لا يزيد عن تقليد من سبقه ويشمل ذلك ربع الكتاب الثاني تقريبا - ج 2 من ص 703 الى ص 1143 وكامل الأجزاء 3، 4، 5 : الدول الاسلامية التي ارتكز نفوذها على قيادة العرب ، وسواء اكان ذلك في المشرق ، او المغرب و 6 الى ص 174 او الأندلس من ظهور الاسلام وحياة الرسول وأيام الخلفاء الراشدين ... حتى غاية سنة 797 بالنسبة لمصر ولترك . - الكتاب الثالث في تاريخ البربر ومن اليهم : يقع في مجلدين ( ج 6 و 7 من ط بيروت 1967 ) . اختصر فيه ابن خلدون اخبار البربر والدول المتقدمة عن ايامه ، من ص 175 وافاض في تاريخ من قرب من عهده ، او من كان معاصرا له ، وخاصة في بني حفص وبني عبد الواد وبني مرين . وبلغ هذا التاريخ الى غاية سنة 796 أي الى ما قبل وفاته ببضعة اعواد ( توفي سنة 808 ) . وكلا الكتابين اتهمها بالقاهرة ، زيادة وتنقيحا بعد التحرير الأول الذي اعدده بتونس (784/780) واهداه الى الأمير الحفصي أبو العباس (796/772 - 1394/1370) . ويعرف هذا التحرير الأول ( بالنسخة التونسية ) ( انظر محتواها في دراسة علي عبد الواحد وفي التي مهد بها للمقدمة ج 1 ص 101 و 133 ) وهذه النسخة لم تبليغا . وانما بلفتنا النسخة الثانية الكاملة التي اتهمها بالقاهرة حوالي سنة 799 ، واهدى نظيرا منها الى ملك مصر ، الظاهر برقوق ( 784 - 1382/801 - 1399 ) ونظيرا آخر موقوفا على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس الى السلطان أبي فارس عبد العزيز ( 796 - 1397/1394/799 ) وتعرف هذه النسخة ( بالنسخة الفاسية ) ، وغنها نقلت ، بصفة مباشرة او غير مباشرة ، كامل النسخ التي بلفتنا ( انظر على عبد الواحد وفي ، المصدر المذكور ص 135 )

الكتاب الأول الذي وضعه كما قدمنا في العمران ، يمتدح الى ان يجعل منه علما شاملا للانسان في كل اوضاعه المتطورة ، أي كشفنا عن سر تسلسل حلقات النشوء والارتقاء (73) فيعرفه هكذا :

( اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتانس والعصبيات ، واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة من الأحوال ... (74) .

كان طموح ابن خلدون يهدف اذن يادى ذى بدء الى ان يجعل من التاريخ قصة النشوء والارتقاء ، ووعاء ضخما يستوعب ( سائر ما يحدث ) في العمران حسب النواميس الطبيعية التي تسيره ، والتي كان يعتزم استكشافها واجلاءها . والى هذا ، اوشبهه ، تسعى اليوم الكتابة الحديثة للتاريخ ، خاصة ابتداء من منتصف هذا القرن (75) . غير انه من الجلي البديهي انه لم يكن ليستطيع تحقيق هذا الهدف الطموح الذي يتجاوز ، لا مقدرة شخص مهما كان عبقريا ، بل مئات الأشخاص وانما هو بناء مستمر لن يتحقق الا على مرّ الأجيال ، وبمشاركة جماعية لم تزل متواصلة . ويكفي ابن خلدون فخرا ان يكون قد حسده الهمة هذا التصور العريض للتاريخ ، وهده الى رسمه كغاية ، عبر عنها بدقة مذهشة سابقة لعصره وامكاناته .

فمن الطبيعي اذن ان نجد في الكتابين ، الثاني والثالث - من ناحية المضمون - كتابة تاريخية تتفق والتعريف الذي سبق . فقد اكتفى فيها ابن خلدون بكتابة تقليدية ولقد عبر عن ذلك ، من الناحية النظرية وبصفة تكشف عن تردده ، في مواطن أخرى من المقدمة العامة التي وضعها لكامل تأليفه ، بما في ذلك الكتاب الأول في العمران . فهو يعرف فيها أيضا التاريخ تعريفا تقليديا مألوفاً على هذا النحو : ( اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جمّ الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في اخلاقهم ، والانباء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه ، في أحوال الدين والدنيا (76) .

فهذا التاريخ ، بهذا المفهوم الضيق ، هو خاصة تاريخ انبياء وملوك ، ودول الغاية منه - لا فهم الانسان في تطوره كما سبق في التعريف الأول - وانما (الاقتداء) (في أحوال الدين والدنيا) . ولا يختلف هذا الهدف عما استهدفه من قبل الطبري وغيره ممن حدا حذوه من المؤرخين . فلا طرافة فيه ولا تجديد .

---

(73) انظر بحثنا ( نظرية النشوء والارتقاء في مقدمة ابن خلدون ) ، سينشر هذا البحث في ( اعمال ملتقى ابن خلدون ) الذي عقد من 14 الى 17 فيفري 1979 بمدينة فاس .

(74) المقدمة ج 1 ص 409 .

(75) تجلب هذه النزعة خاصة في المؤتمر الدولي للتاريخ الذي التأم بباريس سنة 1950 وبها التزمت المجلة التاريخية الفرنسية التي ما زالت تصدر تحت عنوان :

Annales, E.S.C.

(76) المقدمة . ج 1 ص 362

ويؤكد ابن خلدون هذا الاتجاه التقليدي مرة أخرى في نهاية نفس المقدمة العامة ، فيقول :  
( ولندكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها : وهي أن التاريخ انما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر  
او جيل . فأما ذكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال والأعصار . فهو أس ( للمؤرخ تنبني عليه أكثر  
مقاصده . وتنبين به اخباره ) ( 77 ) .

وهكذا نراه في خاتمة المطاف يقصر التاريخ على مضمونه التقليدي ، المتعارف منذ قرون . ويفصل عنه  
ما يهم الانسان من حيث هو انسان متطور . فيجعل من ذلك ( أسا ) منفصلا عن حدة ، تنبني عليه  
مقاصد المؤرخ . أي عملية التاريخ . فهذا الأس المنفصل والمستقل بذاته . هو موضوع اكتشافه وعلمه  
الجديد . وقد ضمن ذلك الكتاب الأول في العمران ( 78 ) .

والذي يستخلص من هذا كله هو ان ابن خلدون كان واعيا كل الوعي انه كان مجددا ثوريا في كتابه  
الأول في العمران . مقلدا كلاسيكيا في كتابيه الثاني والثالث في التاريخ . إذ - بعد التردد الذي اشرنا  
اليه - لم يقصد فيها في النهاية حسب عبارته سوى ( الاختصار والتلخيص . مقتديا بالمرام السهل من  
العويص ( 79 ) . كما ينص في التوطئة العامة التي انجزها عندما انتهى من التأليف . واتى دور التقديم  
وشرح الهدف والتخطيط . نفسان اثنان اذن في تأليف ابن خلدون . نفس ثورى تجديدي في الكتاب  
الأول في العمران . وآخر مألوف تقليدي في الكتابين الثاني والثالث في التاريخ . يجب ان نميز بينهما بكل  
دقة ووضوح اذا ما اردنا الانتبه في مناهات تفضي بنا حتما الى الخلط والتضليل .

غير ان هذا لا يعني ان ابن خلدون لم يكن شديد الاعجاب أيضا بالناحية التاريخية من تأليفه .  
فهو . كما قدمنا . يعتبر ان تاريخه قد ( استوعب أخبار الخليفة استيعابا . وذل من الحكم النافرة صعبا .  
واعطى لحوادث الدول عللا واسبابا . واصبح للحكمة صوانا . وللتاريخ جرابا ( 80 ) . وهو بطمح في ان  
يصبح ( اصلا يفتدى به من المؤرخين من بعده ( 81 ) . ويتيه اعجابا بانجاز ( 82 ) ولا ننسى حملته على  
من سبقه . وان مما دعاه الى التأليف الحاجة الى اصلاح وتقويم . ما وقع فيه هؤلاء من اوهام واخطاء  
اسهب في ذكر نماذج منها . وكان قصده طبعها الا يقع في مثلها . متسلحا في ذلك ( بحسن نظر وتثبت  
بفضيان بصاحبها الى الحق . وينكيان به عن المزال والمغالط ( 83 ) . وذلك بفضل المنهجية التي اعددها  
وسبق تحليلها .

( 7 ) المقدمة . ج 1 ص 405

( 78 ) من دون ان يجحد ما يدين به لمن سبقه . انظر المقدمة ج 1 ص 405 .

( 79 ) المقدمة . ج 1 ص 356 .

( 80 ) انظر ما سبق ص 12 تعليق 4

( 81 ) المقدمة ج 1 ص 406

( 82 ) المقدمة ج 1 ص 355

( 83 ) المقدمة ج 1 ص 362

فالسؤال الذي يطرح نفسه اذن هو : هل نجح ابن خلدون فيما كان يعتزم وهل لاجابه بانجازه ما يبرره ؟

لقد عدل ، كما سبق ان راينا ، عن ان يعطي لتاريخه مضمونا ثوريا بالنسبة لعصره ، سابقا له ، ومستحيل التحقيق . لكن هل احسن تطبيق قانون المطابقة الذي اعده فضبط على الأقل الحوادث ضبطا يبعث على الارتياح والاطمئنان ، ويفوق ما عهدناه في مصنفات سابقيه ، المنتقدة احيانا بشدة من طرفه ؟

ان معاصري ابن خلدون قد اختلفوا اختلافا كبيرا في شأنه ، ولم يساعدهم اعجاب الرجل بنفسه وكبرياؤه على انصافه . فهناك من أغرق في اطرائه . وهناك من اسف في التشيع عليه حتى ان بعضهم رماه ( بمعاشرة الأحداث ) ( 84 ) لكنهم ، بصفة عامة ، ان قدروا الطرافة في كتابه الأول في العمران ، فانهم احترزوا في شأن ما يتعلق من تاليفه بالتاريخ الصرف ، خاصة بالنسبة للمشرق . فالحافظ ابن حجر العسقلاني مثلا - الذي لم يكن من انصاره ، وان اخذ عليه واستجازه في مؤلفاته ( 85 ) - يبدو متحفظا . فهو يعترف انه ( صنف التاريخ الكبير ، في سبعة مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ، وابان فيه عن براعته ، لكن هذا لا يمنع من ان يتهمه بانه ( لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ، ولا سيما اخبار المشرق ، وهو بين لمن ينظر في كلامه ( 86 ) . وكذلك بدرالدين العيني - وكان من خصومه ، وعنه

---

( 84 ) انظر علي عبد الواحد وافي ، الدراسة التي مهد بها لتحقيق المقدمة ، ج 1 ص 136 - 138 . وص 332 - 334 . وكان من المشيدين بابن خلدون ، من المؤرخين : تقي الدين المقرئ ( 766 - 1365/845 ) وابو المحاسن بن تغرى بردى ( 813 - 1410/874 - 1470 ) وأبو العباس الفلقشندي ( 756 - 1355/821 - 1418 - ومن خصومه : ابن عرفة ( 716 - 1316/803 - 1400 بنونس وبمصر : المحافظ ابن حجر العسقلاني ( 773 - 1372/852 - 1449 ) والسريراكي ( 1417/799 ) وبدرالدين العيني ( 762 - 1360/855 - 1451 ) والجمال عبد الله البشبيشي ( 762 - 1361/820 - 1417 )

( 85 ) أخذ ابن حجر عن ابن خلدون ، وفي ذلك يقول : ( اجتمعت بابن خلدون مرارا ونعمت من فوائده ومن تصانيفه . خصوصا في التاريخ ) رفع الأصر ، نقلا عن علي عبد الواحد وافي المصدر المذكور ، ص 138 . وانظر أيضا ، في نفس المصدر ج 1 ص 552 ، صورتان من الاجازة التي طلبها ابن حجر ، ومنحها له ابن خلدون .

( 86 ) ابن حجر ، ( انباء الغر باتيام العمر ) ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم 19404 ، عن مخطوط احمد . الثالث باسطنبول ، رقم 2941 ح 1 لوحة 172 ، وذلك نقلا عن عبد الرحمان بدوي ، ( مؤلفات ابن خلدون ) ( القاهرة 1962 ، ص 286 . وابن حجر ينقل هنا عن العيني ، الذي يدعوه العينياني . انظر ايضا محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ) القاهرة 1933 ص 92 - 94 .



ينقل ابن حجر - فهو ينص ان ( له تاريخ في سبعة مجلدات ، امعن فيه ما يتعلق ببلاده ، ولم يطلع على الأمور التي وقعت في بلاد المشرق على جليتها ، يظهر ذلك لمن ينظر في كلامه (87) .

ان هذه الأقوال مفيدة لانها تعكس آراء القدماء في ابن خلدون وما اثارته شخصيته القوية من دوافع الاعجاب ، او العداء السافر . لكن اذا ما اردنا اليوم ان نقيم تاريخه بصفة موضوعية - وقد مر الزمان وهذأت الأعصاب - يجب ان ننظر في هذا التاريخ في حد ذاته ، بصفة عميقة وشاملة . ان هذه النظرة تتجاوز طبعا حدود هذا المقال . غير ان ما لا يدرك جلّه لا يترك كلّ . ولعل القول الذي سنورده - اعتمادا على بعض الأمثلة . سيفتح باب النظر والتأليف ، في مستوى الدرجات الجامعية او غيرها في اتجاه قد غمر واهمل لطغيان الكتاب الأول في العمران - الذي اشبع تحليلا وبحثا - على المدارك والعقول .

ان ابن خلدون نفسه قد اعطى نماذج عن تطبيقه لقانون المطابقة الذي ابتكره - واراد ان يجعل له الأولوية على قانون التجريح والتعديل المعتمد في منهجية الحديث التي كانت سائدة بمفردها من قبل - وذلك في مقدمة كتابه الأول التي خص بها ( فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه (88) .

فهو ، في هذه المقدمة ، يلاحظ بحق ان ما اورده المسعودي وغيره من المؤرخين من ان جيوش موسى قد بلغت 600.000 مقاتل لا يثبت امام النقد الباطني ، وذلك لأسباب جغرافية ، واستراتيجية ، وبالمقارنة ايضا مع جيوش امم اخرى كانت اشد قوة ووسع ملكا . ويؤول هذه المبالغة ، وامثالها ، بولوع النفس بالغرائب ( 89) . ولنفس الأسباب يعتبر الأخبار الواردة في شأن التباغة ، وغزواتهم في فارس والصين ، وخرافة افرقتش ودخوله المغرب . ( من الأخبار الواهية (90) ، وانها ( اشبه باحاديث القصص الموضوعية (91) ، فيفندها بأدلة عقلية ، وجغرافية ، وسياسية (92) ، اي بتعارضها مع قانون المطابقة .

---

(87) ( عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ) عن المصورة المخطوطة رقم 1584 تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، القسم الثاني ، وذلك نقلا عن عبد الرحمان بدوي ( مؤلفات ابن خلدون ص 288 . وقد نقل ذلك ابن حجر كما سبق . ويلاحظ ان العيني كان يعترف لابن خلدون بحسن المحاضرة ، فينص انه ( كان رجلا فاضلا ، صاحب اخبار ونوادر ، ومحاضرة مليحة ) . غير انه زيادة على احترازه في قيمته التاريخية ، يهتمه في سيرته واخلاقه ، بدون تفصيل ، فيشير الى انه ( مع هذا كله كان يهتم بامور قبيحة ، ساءه الله تعالى ! ) ( نفس المصدر ، ص 288 ) .

وقد ورد في ( رفع الأصر عن قضاة مصر ) لابن حجر ( خط 2149 و 5893 ، المكتبة الوطنية بباريس ، لوحة رقم 80 أ ) ما يلي : ( وسئل عنه الزركاكي ، فقال : عرى من العلوم الشرعية . له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ، ولكن محاضراته اليها المنتهى .... ) نقلا عن عبد الرحمان بدوي ، المصدر المذكور ، ص 281 . ويستخلص من هذا كله ان ابن خلدون ، ان طعن عليه في عمله واخلاقه ، فكل معاصريه بهروا بحسن محاضراته ، ولم يجدوا بدا من الاعتراف له بذلك .

(88) المقدمة ، ج 1 ص 362 - 408

(89) المقدمة ، ج 1 ص 367

(90) المقدمة ج 1 ص 367

(91) المقدمة ج 1 ص 369

(92) المقدمة ، ج 1 ص 369 - 372

ثم يضيف ( وأغرق في الوهم (93) ما ورد في شأن ( ارم ذات العباد ) تلك المدينة المزعومة التي لم يقع لها احد على اثر . وكذلك ينفي ، بكل جدارة ان تكون نكبة البرامكة نشأت عن قصة غرامية ، بطلاها جعفر بن يحيى البرمكي والعباسة اخت الرشيد ، ويعللها بأسباب اعمق . وأكثر علاقة بطبيعة الملك ومقتضياته ، ومنها ( ما كان من استبدادهم على الدولة ، احتجائهم (94) اموال الحياة ) . ويعتبر ايضا - وهو في ذلك اقل اقتناعا - ان قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية يقتضي ان تنفي ما يروى من ( معاقرة الرشيد الخمر ) (95) وانه انما كان ( يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق (96) كما يقتضي نفس القانون - في نظره - عدم القدح في نسب الفاطميين ، الذين استطاعوا تأسيس ملك عظيم ، اذ ( كيف يقع هذا كله لدعي في النسب ، يكذب في انتحال الأمر (97) وكذلك يجب ان تنفي ما قيل في نسب ادریس الثاني ) . وانه لراشد مولاہم (98) . اذ هذا في اعتقاده اوغل في الافتراء ، وهو افتراء يرجع لأسباب سياسية ، منها دسائس الأغالية . والحقيقة التي يدافع عنها ابن خلدون ، اعتمادا على قانون المطابقة ، هي ان ادریس الأكبر كان ( عريقا في البداءة ، وان حال البادية في مثل ذلك غير خافية ، اذ لا مكان لهم يأتي فيها الرب (99) . ثم ، بعد هذا كله ، ( فادريس ولد على فراش ابيه ، والولد للفراش (100) . فيأتي هكذا الفقه لنجدة التاريخ . وفوق ذلك كله ينبغي ( تنزيه اهل البيت ... فאלله - سبحانه ! - قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ففراش ادریس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن (101) . والنواميس الاجتماعية ، في نظر ابن خلدون ، تدعم ايضا صحة نسب المهدي ابن تومرت في اهل البيت . وذلك لما عرف عن الرجل من ( التشف والحصر (102) ، مما يؤيد ان عمله كان موجها لوجه الله ، ( والناس مصدقون في انسابهم . ) فان قيل ( ان الرئاسة لا تكون على قوم في غير اهل جلدتهم ) ، فهذا صحيح ، لكن هذا لا يستوجب حتما ان ابن تومرت كان بربريا دما ، اذ برسوخ شجرته في قبيلة هرغة ، والتحامه بها منذ زمن بعيد ، فان النسب الأول ، نسب اهل البيت ( كانه انسلخ منه ، ولبس جلدة هؤلاء ، وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الأول في عصبته (103) .

(93) المقدمة ، ج 1 ص 372

(94) المقدمة ج 1 ص 375 ، واحتجن المال ، خص به نفسه . وفي ط . بيروت 1967 : ( احتجافهم )

(95) المقدمة ج 1 ص 378

(96) المقدمة ج 1 ص 380

(97) المقدمة ج 1 ص 386

(98) المقدمة ج 1 ص 390

(99) المقدمة ج 1 ص 390

(100) المقدمة ج 1 ص 394

(101) المقدمة ج 1 ص 394 . وهو يشير الى قوله تعالى : ( انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ، ويطهركم تطهيرا ) ( الأحزاب . آية 33 ) .

(102) المقدمة ج 1 ص 397

(103) المقدمة ج 1 ص 398

هذه امثلة من اعتقاد ابن خلدون على النقد الباطني للتأكد من صحة ما يروى . وهذه الأمثلة تفيد ان قانون المطابقة شيء ، وتطبيقه شيء آخر . فان كان ابن خلدون مصيبا بدون منازع في بعض استقرائاته ، فان ما ذهب اليه في البعض الآخر لا يفتنح حتما . بل نحن نلمسه متأثرا بذلك الانحياز المذهبي ، او العاطفي ، الذي سبق ان حذر منه بجدارة . ويظهر هذا الانحياز الشعوري - الملتهب حماسا احيانا - في بعض سبل احتجاجاته التي سبق تحليلها . فهو يحكم ، حكما باتا لا يقبل الشك ، بصحة نسب ادريس الأصغر ، لأن الله ، بنص القرآن ، اذهب الرجس عن أهل البيت ، فهم ، في نظره ، معصومون عن اقتراف الاثم . فهل من حاجة الى التنبيه ان هذه حجة ما ورائية . ليست من الموضوعية في شيء ، وانها لا تمت بسبب لنواميس الطبيعة التي اراد ابن خلدون ان يقيم عليها نقده الباطني ؟ بل نحن نراه يفرق في الشعورية - والماورائية - بصفة اوضح ، فيعلن : ( وانما اطنبت في هذا الرد .... لما سمعته اذناي من قائله المعتدي عليهم ... لكنني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة (104) . فهذه مجادلة بمجادلة ، أبعادها دينوية وسماوية ، فهي ليست من التاريخ ومنهجية في شيء . وكذلك فان جدال ابن خلدون من أجل صحة نسب ابن تومرت في آل البيت ، انما ذلك يرجع لاعجابه بالرجل ، وبعظمة الدولة التي أقامها وبنائها ، فألهاء ذلك عن اعتبار الدواعي التي ترجح ان نسبه منتحل (105) وفي مقدمة تلك الدواعي زعمه انه المهدي المنتظر . ولنترك في النهاية القارىء بفكر في قيمة اقتناع هذه الحجة التي اراد ابن خلدون ان بنفى بها عن العباسية . اخت الرشيد ، عار علاقتها بجعفر :

( ... وهيئات ذلك من منصب العباسية ، في دينها وابويها وجلالها ... كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم ؟ (106) .

فان كانت اذن منهجية ابن خلدون سليمة في حد ذاتها ، فانه من المجازفة ان نجزم ان استخدامها من طرفه كان دائما وفي كل الأحوال سليما . وشأنه في ذلك شأن كل المؤرخين ، في كل زمان ومكان ، اذ الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، انما هما غاية ، دونها عقاب كثيرة باطنية وخارجية ، لا نفلح دائما مهما اجتهدنا في تجاوزها .

غير ان هناك اخطر من ذلك .

(104) المقدمة ج 1 ص 394 - 395

(105) قد ورد هذا النسب شديد الاضطراب في مختلف المصادر وابن خلدون نفسه يورد هذه الانساب المختلفة ( عبر ، ج 6 ص 464 - 465 ) . انظر ايضا محمد عبد الله عنان ، ( عصر المرابطين والموحدين ) ، القاهرة 1964 ج 1 ص 158 - 159 ، حيث نقرا : ( ومن المحقق الذي لا يقبل ذرة من الجدل ان ابن تومرت بربري الجنس .. ) انظر ايضا كتاب الانساب ( المؤلف مجهول ، في

E. Lévi-Provençal Documents inédits d'histoire almohade, p. 21, voir aussi M. Talbi Ibn Tumart, dans les Africains, ouvrage collectif sous la direction de Ch.-A. Julien, Paris 1978 XI, 139 et note 5.

(106) المقدمة ج 1 ص 374

ان ابن خلدون قد خدم النفوذ ، وحتى عندما انقطع الى العلم ، لم يقطع اتصاله به تماما . وبقي منتفعا بحياه . فلقد عاش في مصر في رعاية السلطان الظاهر بركسوق ( 784 - 801 / 1382 - 1399 ) وان افترى ضده - اكرها حسب ما يذكر في التعريف (107) عندما خلع موقنا عن العرش . ولا شك ان اتصال ابن خلدون بالنفوذ جره الى الوقوع في تلك الاخطاء التي حذر منها . والتي يوحى بها التقرب ( لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح (108) قصد المحافظة على الوظيفة والعطاء . فهو مثلا يورد اسطورة اتصال نسب السلطان بركسوق بقبيلة غسان ، كي يرتقي به الى شرف الانتساب الى العرب ، وهو ما حرصت عليه كل الأسر المالكة في الاسلام . ويبحث عن تعليل لذلك ، فيرى ان ( اصل هذا الأمير بركسوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطه القفجان والروس واللان من شرقيها ، المظلة على بساطهم . ويقال انهم من غسان الداخلين الى بلاد الروم مع اميرهم جبلة بن الأيهم ... واحتاجت غسان الى الحلف للمدافعة في الفتن ، وحالفوا قبائل جركس ونزلوا في بساط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية ، وخالطوهم بالنسب والصهر ، واندمجوا فيهم حتى تلاشت احيائهم . وصاروا الى تلك الاماكن ، وأووا من البسائط الى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا ان تكون انسابهم تداخلت معهم ، ممن انتسب الى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه ، ويستأنس له بما ذكرناه ، فهو بنسبة قوية في صحته ، والله تعالى اعلم (109) ثم بعد تعليل صحة نسب بركسوق في العرب ، يتحدث ابن خلدون كيف كانت ( العناية الربانية تحوم عليه (101) ، ويتأدى في هذه اللهجة الاطرائية التي لا تخلو من تملق بلاطي واضح .

وهو كذلك ، تزلفا ( لأصحاب التجلة والمناصب ) . يلحق نسب الحفصيين - وهو يعلم وثيق العلم انهم من البربر ، من هنتاة جبال مضمودة بالمغرب الأقصى - بعمر بن الخطاب فيحلبهم اكرم محل من قرش ، ويلتمس لهم العلل لذلك (111) . بل ينقلب الى شاعر ، ويصوغ في ذلك المديح ، في قصيدة طويلة قدم بها النسخة الأولى من كتابه الى الخليفة ابي العباس ( 772 - 1370/796 - 1394 ) :  
 قوم ، ابو حفص اب لهم ، وما أدراك والفاروق جد أول (112)

(107) ص 330 - 331

(108) المقدمة ج 1 ص 410

(109) العبر ، ج 5 ص 1011 - 1012 انظر أيضا :

W. J. Fischel, Iba Khaldun in Egypt Un of California Press 1967, p. 74.

(110) العبر ، ج 5 ص 1012

(111) العبر ، ج 6 ص 578 حيث نقرا : ( وأما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن احمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن واقتن بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين . ويظهر منه ان هذا النسب القرشي وقع في المصادمة والتحم به ) .

(112) التعريف ، ص 235 .

ففي هذا دلالة كافية على ان ابن خلدون ، مهما كانت المنهجية التي اهتمدى اليها سليا في المستوى النظري ، فهو لم يستطع ، في مستوى التطبيق ، ان يتخلص من العوائق التي تحول عادة دون الموضوعية المطلقة ، وذلك اما بصفة غير شعورية لميوله والتزاماته العقائدية ، واما بصفة شعورية ومقصودة للالتزاماته السياسية ومنافعه المادية .

بقي علينا ، والحال كما وصفنا ، ان نحاول تقييم حصيلة اسهامه التاريخي مع التاكيد على ان هذا التقييم لن يصبح يقينيا الا بعد الدراسة الكاملة للكتابين الثاني والثالث من هذه الزاوية ، كما اشرنا الى ذلك سابقا .

ان ابن خلدون في موسوعته التاريخية ، يقوم ، كغيره ممن سبقه ولحقه ، بدورين : دور الناقل من ناحية ، ودور المشاهد من ناحية اخرى . فمن هذه الزاوية يجب ان ننظر الى تأليفه ، وذلك بدون تمييز - كما هو الشأن عادة - بين ما يخص البربر منه ، وقد غولي في اطرائه ، وبين ما يهم العرب ، وقد افراط في استنقاظه .

فسؤالنا الأول اذن هو : هل احسن ابن خلدون النقل ، فيما نقل ، وهل فاق في ذلك متقدميه ، بحكم منهجيته الجديدة ، تمحيضا واختيارا ؟ نكتفي طبعاً ببعض الأمثلة التي تتعدى قيمتها قيمة كل سير . وأول ما نلاحظه ان ابن خلدون ، كناقل ، لم يجد دائما التمهيد فهو مثلاً يذكر ان فتح المغرب بدا في خلافة عمر ، وذلك عند حديثه عن الأديان التي دان بها البربر قبل الاسلام عندما كانت بلادهم تابعة للحضارة الرومية (113) . وهذا وهم واضح جلي ، لا حاجة للتأكيد عليه ، ولعله سبق قلم . وهو كذلك يزعم ان الكاهنة (114) قد عمرت 127 سنة ، وهذا خبر من قبيل الأساطير التي تتشأ عن ( ولوع النفس بالغرائب ) (115) وقد نبه الى ذلك الكاتب في كتابه الأول في العمران عندما كان بصدد ضبط منهجية ، ثم وقع في نفس الخطأ الذي منه حذر ، ثم هو ينسب استشهاد عقبة في موقعة تهودة الى الكاهنة (116) ايضا وهذا اعظم في الابتعاد من الحقيقة ، اذ لا يختلف اثنان ولا يتناطح عزان في ان عقبة انما ذهب ضحية الثورة التي دبرها كسيلة ونفذها رهطه من الأوربة (117) وينقل ابن خلدون ايضا ان عبد الرحمان بن رستم كان ( من مسلحة الفتح ، وهو من ولد رستم امير الفرس بالقادسية . وقدم الى افريقية مع طوابع الفتح فكان بها ، واخذ بدين الخارجية والاباضية منهم ، وكان شيعة لليمينية وحليفا لهم (118) .

---

(113) العبر ، ج 6 ص 214

(114) العبر ، ج 7 ص 17 - 18

(115) المقدمة ج 1 ، ص 367 .

(116) العبر ج 6 ص 218 ، و ج 7 ص 17 - 18 . انظر ايضا الناصري ( الاستقصاء ) ج 1 ص 82 - 83

(117) انظر بحثنا :

Un nouveau fragment de l'histoire du Maghreb (62-196 — 682-812) l'épopée d'al-Kahina, dans les Cahiers de Tunisie.

(118) العبر ، ج 6 ص 246

فهذا كله خليط من المتناقضات لا يستقيم حرف منه ، اذا ما نقد نقدا باطنيا حسب قانون المطابقة الذي استنبطه ابن خلدون، واراد ان يجعل منه المقياس الأساسي لا يمكن ان يكون (من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية ) - وقد دارت رحاها بين سنة 14 و 637/735 - 637 الا اذا حملنا العبارة توسعا على انه من ذريته ؟ ثم ، اذا ما قبلنا هذا التعليل ، كيف يمكن ان يكون ( قدم الى افريقية مع طوابع الفتح ) ، وقد بدا هذا الفتح في خلافة عثمان سنة 647/27 - 668 وتواصل حتى ايام عبد الملك بن مروان ولم يتم الاحوال سنة 693/74 ؟ انه يستحيل ، لأسباب تاريخية ، ان يكون عبد الرحمان بن رستم قدم ( مع طوابع الفتح ) ، ولا حتى مع اواخره . ثم كيف يكون ( اخذ بدين الخارجية والاباضية ) من طوابع الفتح ؟ والحال انه لم يشارك في هذا الفتح الخوارج ، وذلك لأسباب بسيطة وبديهية ، وهي انه كان يستحيل عليهم ان يقاتلوا في جند خلافة كانوا يرفضون شرعيتها ، وتواصلت ثوراتهم عليها في الشرق ، قبل ان يكسروا شوكتها في المغرب ، ويحرروا بصفة نهائية الجانب الأوسط والأقصى منه من نفوذها . وكيف ايضا يمكن له ان ( يكون شيعة لليمنية وحليفا لهم ) أي ان يكون من انصار العرب الممارسين للنفوذ . ثم في نفس الوقت يتزعم الحركة البربرية الثورية تحت لواء الاباضية ؟ كل هذا فيه دلالة على ان ابن خلدون كان ينقل بدون ذلك التمهيص الذي من اجله وضع منهجيته . ويمكن ان نتتبع عدم التمهيص هذا في مواطن عديدة اخرى منها تلك التناقضات التي تحيط بأسرة بني وسول الصفرية بسجلها . فابن خلدون يدعوا مؤسسها تارة سعيد بن وسول (119) وتارة مصلان ( او مصلات ) بن ابي يزول (120) . وهو خاصة يجعل من ابنه ابي القاسم سمقو ( اوسمكو ) - الذي ولي (121) من 772/155 الى 784/168 - 785 ( صفريا اباضيا ) في نفس الوقت . بل هو يذهب الى اغرب من ذلك . فيزعم (122) انه جعل الخطبة باسم المنصور العباسي ( 136 - 754/158 - 775 ) ثم باسم المهدي ( 158 - 169 / 775 - 785 ) ، مما لا يتفق البتة مع اصول الدعوة الخارجية في كل اشكالها مهما كانت معتدلة . أي مع قانون النقد الباطني المبني على المطابقة وكذلك ينقل ابن خلدون (123) ان امير افريقية عبد الرحمان بن حبيب ( 127 - 137 / 745 - 755 ) هو الذي قتل الزعيمين الاباضيين الخارجين بطرابلس الحارث وعبد الجبار والأقرب الى منطق تسلسل الأحداث ما يرويه ابن عبد الحكم (124) . وتؤيده المصادر الاباضية (125) وهو ان القائدين اقتتلا على النفوذ حتى قتلا بعضهما بعضا .

(119) العبر ج 6 ص 210

(120) العبر . ج 6 ص 267

(121) ابن عذارى . البيان . ج 1 ص 79 و 56 .

(122) العبر . ج 6 ص 268

(123) العبر . ج 6 ص 223 - وهذه ايضا هي رواية النص المنسوب للرقيق . ص 129

(124) فتوح ( ط ) ص 142/143

(125) أبو زكريا . كتابة السيرة ترجمة

R. le Tourneau, dans la Revue Africaine.

(1960) 104 الشهاخي . السير . ص 125 ، البرادى . الجواهر . ص 170 - 171

مما اثار داخل حزبها مشاكل مذهبية عديدة بثت الشقاق داخله وبلغنا صداها .  
ان ما اوردناه - وهو قليل من كثير - فيه دلالة كافية على ان ابن خلدون في نقوله ، لم يجد استخدام المنهجية التي وضعها ، حتى كانه غفل عنها ونسيها . فهو لا يفوق غيره لا قليلا ولا كثيرا ، تثبتا وتحصيما ، ونحن لا نشعر البتة انه يكتب التاريخ كتابة جديدة .  
لكن ، ان لم يجد التمهيص فهل اجاد على الأقل الاختيار؟ جوابنا على هذا السؤال سلبي ايضا . فهو ، عن قصد وغير قصد ، لم يحسن دائما انتقاء ما ينقل ، والح احيانا في الاختصار الجاحا مخلا . ولنضرب على ذلك بعض الامثلة ، عمادها السبر . ففيما يخص ولاية يزيد بن أبي مسلم ( 102 - 720/103 - 721 ) - الذي حمل مسلمي البربر على اداء الجزية ، واعاد من عتق منهم الى الرق ، وخاصة موالى موسى بن نصير ( 79 - 698/95 - 714 ) فوسمهم في ايديهم واتخذهم في شرطته - فان ما يشرح سياسته ، نجده عند الطبري (126) وعند اليعقوبي (127) وابن الأثير (128) وابن تغري بردي (129) وابن عذارى (130) اكثر مما نجده عند ابن خلدون (131) . وكذلك فيما يخص ثورة ميسرة (740/122) بالمغرب ، فان اهم نص يروى لنا قصة سفارته الفاشلة لدى هشام بن عبد الملك (105 - 724/125 - 743 ) فانما احتفظ لنا به الطبري (132) ولا نجد له خبرا عند ابن خلدون .

ولا فائدة في ان نطيل في تتبع الثغرات وضرب امثلة عليها . فهي اكثر من ان يحاط بها . وكل متصفح لتاريخ ابن خلدون يعلم علم اليقين انه لا بغني البتة ، حتى في تاريخ المغرب ، عن غيره . بل نحن نجد في غيره اضعاف ما نجد فيه . فان تجربتنا الشخصية مثلا قد أفادتنا بصفة قطعية ، عندما كنا نكتب تاريخ الأغالية 184 - 800/296 - 909 ) ، ان اهم موسوعة يمكن الاعتماد عليها ، ليست كتاب العبر ) ، وانما هي ( البيان المغرب ) لابن عذارى . ثم يأتي في المرحلة الثانية ( كامل ) ابن الأثير ، ثم ( نهاية ) النويري ، ولا يحتل ابن خلدون ، حسب تجربتنا ، الا المرتبة الرابعة ذلك انه كثيرا ما يختصر اختصارا مخلا بفهم الوقائع ، ولا يعدم الوقوع في الخلط والخطأ . ثم هو ، كغيره من مؤرخي السنة ، يضرب صفحا ، وعمدا في نظرنا . عن النقل عن بعض المصادر المعادية . وذلك لتلك الأسباب المذهبية التي تؤدي الى التحريف ، لا بالتشويه دائما . بل بالصمت احيانا . والتي سبق ان حذر منها ابن خلدون ، ثم

(126) التاريخ ، ط . دار المعارف ، ج 6 ص ، 374 ، 493 ، 506 ، 617 ، ج 7 ص 431 ، ج 8 ص 96

(127) التاريخ ، ط بيروت 1960 ، ج 2 1969 - 313

(128) الكامل ، بيروت 1965 ج 4 ص 584.493 ، ج 5 ص 101.77.11.408

(129) النجوم الزاهرة ، القاهرة 1963 ، ج 1 ص 245 ، 248 - 249

(130) البيان ج 1 ص 48 - 49

(131) العبر ، ج 6 ص 220 - 221

(132) التاريخ ، ج 4 ص 254 - 255 . انظر ايضا ابن الأثير ، الكامل ، ج 3 ص 35

وقع في حبالها ، فهو مثلا لا ينقل شيئا عن ( افتتاح الدعوة (133) للقاضي النعمان بن حيون - وهو اهم مصدر يصور لنا ، من الزاوية الشيعية ، انبعاث الحركة الفاطمية في جبال كتامة بزعامة أبي عبد الله الداعي - ولم يكن ذلك على الأرجح جهلا وانما قصدا .

ثم هو ، فيما يخص الموحدين ورغم اعجابه بهم ، يفرط في التلخيص مما يجعلنا نفضل عليه بكثير ابن عذارى ، الذي يورد الأخبار بأكثر تفصيل ودقة ووضوح ، وإن لم يكن هو ايضا معاصرا للحوادث وانما مجرد ناقل ، فابن خلدون لا يذكر شيئا عن عقيدة الموحدين ونظمهم ، حتى كأنه لم يطلع على امهات المؤلفات التي تقص اخبارهم ، والتي بلغنا بعضها : كمذكرات البيهقي ، ( والمن بالامامه ) لابن صاحب الصلاة ، و ( نظم الجمان ) لابن القطان (134) وغير ذلك . وهكذا يكاد يفقد ما يرويها ابن خلدون كل فائدة .

وهذا الأستاذ برانشفيك ( R . Brunschvig ) ، وهو من اهم من مارسه واعتمد عليه في دراسته عن الحفصيين ، يلاحظ ( ان التواريخ الدقيقة ليست مما يبدع فيه . فالمعطيات المؤرخة كثيرا ما تتناقض تناقضا مفرطا خلال تأليفه ، مما يدعو في كثير من الأحوال الى ان نفضل عليها ما تورده مصادر أخرى اكثر تواضعا وابعدا اختصارا (135) .

ان كتاب العبر ، في مستوى النقل ، لا يخلو اذن ، كما بينا ، من عيوب ونقائص عديدة تنزع عنه ثوب الجلالة الذي طالما شمله . غير ان هذا لا يعني حتما انه يفقد كل فائدة ترجى . وذلك اولا لأنه قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر . فقد نثر فيه على معلومات تكميلية او توضيحية اهملتها الموسوعات الأخرى . فهو مثلا استعمل استعمالا احسن واشمل المصادر العبرية والنصرانية العربية (136)

---

(133) طبع حديثا مرتين على التوالي : تحقيق الآنسة وداد القاضي ، بيروت وتحقيق فرحات الدشراوي ، تونس

(134) انظر في شأنه دراسة الآنسة

de G. Fletcher, the Nazm al-Juman as a source for almohad history, dans actes du premier congrès d'histoire et de Civilisation du Maghreb, Tunis, 1979, I, 193-199.

(135) انظر : 392

R. Brunschvig la Berbérie Orientale sous les Hafssides, Paris 1947, II.

(136) فهو ينقل مباشرة عن نص التوراة المترجم الى العربية ( انظر في ذلك

W.J. Fischel , Ibn Kaldun, (in Egypt, 123-129).

وينقل عن مؤلف اسرائيلي يدعوه يوسف بن غريون ( العبر ، ج 2 ص 222 - 223 ) ويظهر من قوله انه اشتبه عليه امره فحسبه يوسف فلافيوس (Joseph Flavius)

غير ان الحقيقة هي ان النص الذي اعتمده انما هو المعروف في العصر الوسيط المسيحي ( بتاريخ يوزفون )

(Chronique de Yosiphon)

وقد ترجم هذا التاريخ الى العربية فعلا ( انظر فيشل ، المصدر المذكور ، ص 139 - 148 ) . وينقل كذلك عن سعيد

ابن البطريق Eutychius

( 263 - 877/328 - 940 ) . وعن ابن العميد ، وجرجيس المكين .



وخاصة منها تاريخ هرشيوش (137) (Orasius) ، الذي تفرد بالنقل عنه نقلا واسعا ، وهذا ما اشار اليه من قبل المستشرق الايطالي ليفي دلا فيدا (L. Della Vida) ، الذي ينيه ( ان ابن خلدون هو المؤلف العربي الوحيد الذي استخدم استخدما واسعا وذكيا تاريخ هرشيوش فيما نقله في تاريخه العام (138) وهو في كل الأحوال يمكن طبعا من المقارنات الصالحة . ومن التعرف على رأي صاحبه في أهم القضايا .

غير ان قيمة الكتاب التي لا تجحد تكمن خاصة في مستوى المشاهدة ، أي فيما يرويه ابن خلدون كمعاصر للأحداث التي عاشها ، او شارك احيانا كممثل نشيط في بعض ادوارها . ولقد اتبحت لنا الفرصة ، في هذا المستوى ، كي ندرك قيمته بالنسبة للجالية الأندلسية التي نزحت الى المغرب في القرن السابع الهجري ( الثالث عشر ميلادي ) ولعبت دورا حاسما على الصعيد السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي . يفوق الدور الذي كان للهجرة الجماعية الثانية والأخيرة بعد قرار الطرد الذي اتخذ سنة 1609 ميلادي فان كتاب العبركان مصدرنا الأساسي ، ولولا ما توفر لنا فيه من معلومات وملاحظات لما استطعنا ان نبلغ غايتنا على الوجه الذي تأتى لنا ؟ (139)

وكذلك بالنسبة للشرق ، فان كتاب العبر يكتسي بالنسبة لتاريخ الترك ، والمهاليك ، وتيمور لنك خاصة . الذي اتصل به المؤلف اتصالا مباشرا ، أهمية تفوق غيره كما لاحظ ذلك الأستاذ فيشل (140) ( W . J . Fishel ) . بعد القيام بمقارنات عديدة . فابن خلدون قد احتفظ لنا بمعلومات اجتهد فيها ان

(137) ابن خلدون يذكره مرارا في العبر ( مثلا ج 2 ، ص 18 ، 22 ، 79 ، 169 ، 404 ، 459 ، 489 ، 493 )

والمفصود Pautus Orosius

وهو من اصحاب القديس المغربي اغسطينوس (St Augustun)

( 430/354 ) ولقد عاش هرشيوش في القرن الخامس المسيحي ، ولف تاريخا عاما بعنوان : Histoire :

Adversus Paganes وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بقرطبة

ايام الناصر ( 300 - 912/350 - 961 ) . وبلغنا ترجمته في مخطوط محفوظ به في مكتبة كلومبيا بالولايات المتحدة . وقد نقل عن هذا الكتاب . قبل ابن خلدون ، نقلا يسيرا ، ابن جلجل ، في طبقات الاطباء والحكماء . وكذلك ابن ابي أصبيعة انظر :

Levi Della Vida la craduzione araba della storrie dans al-Andalus, XIX, p. 257-293.

وانظر ايضا الدراسة التي قدمها عبد الرحمان بدوي في ملتقى ابن خلدون الذي عقد بالرباط في افريل 1979 ، والتي ستنشر في اعمال هذا الملتقى .

(138) انظر :

Levi Della Vida, op. cit. p. 261. La traduzione araba della storie vol XIX, fasc 2. Madrid Grenade 1954 p. 261.

(139) انظر بحثنا : الهجرة الأندلسية الأولى الى افريقية ايام الحفصيين ، في مجلة الأصاله 26/الجزائر 1975 من

90 - 46

(140) انظر مؤلفيه : Ibn Khaldun and Tamerlan, Un of California, 1952 Ibn Khaldun in Egypt, p.108.

يبلغ اكثر ما يمكن من التمهيص والتحقيق ، معتمدا ، زيادة عن مشاهداته الخاصة ، لا المصادر الكتابية فقط . بل ايضا ملحوظات المسافرين ، وروايات من شاركوا في الأحداث او اكبوها من موظفين سامين وغيرهم .

غير انه ، هنا ايضا ، يفاجئنا احيانا بصمت ونقص غربيين : فهو لا يذكر شيئا مثلا عن المجاعة الرهيبة التي اجتاحت مصر في ايام برقوق ؟ ولا ينبس ببنت شفة عن التجارة التي كانت تربط مصر بالهند عن طريق اليمن ، والتي كان لها دور اساسي في الاقتصاد والسياسة . ويفغل غير ذلك . ان كل ما سبق يفيدنا بوجه عام ان الكتابين ، الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر ، من تأليف ابن خلدون ، لا يخلوان طبعاً من فائدة . غير ان هذه الفائدة تزيد وتقل : تزيد عندما يكون ابن خلدون شاهد عيان ، وتقل ، بل تكاد تنعدم ، عندما يكتفي بدور الناقل . ان موسوعة ابن خلدون ليست احسن موسوعة تاريخية بلغتنا فموسوعات المؤرخين المحترفين حقاً . كالطبري او ابن الأثير مثلا بالنسبة للمشرق . تفوقها بكثير ذلك ان ابن خلدون وضع منهجية . ولم يكذب يطبقها . فهو لا يسلم من الوقوع في الخطأ . ولا يحسن دائماً الاختيار ، وكثيراً ما يلج في الاختصار الحاحاً محلاً . فان احسن موسوعة مثلاً ، بالنسبة لتاريخ المغرب والاندلس ، ليست كتاب العبر - كما قد يتوهم احيانا - وانما بيان ابن عذارى ، وان كان صاحبه ، الذي عاش في نصف القرن الذي سبق ابن خلدون . لم يبلغ شهرة هذا الأخير ، بل ظلمه اصحاب الطبقات جميعاً حتى انهم لم يشئوا له ولو ترجمة واحدة .

ان ابن خلدون في الحقيقة لم يكن مؤرخاً محترفاً ، وان انطلق من شواغل تاريخية ، وكان سجل احيانا ما شاهده بدقة تفوق ما بلغنا عن طريق غيره . وان دعاه توفد ذكائه الى النقل عن اغفله من سبقه في بعض الحالات وكان معجبا بتاريخه ذلك ان همه في النهاية لم يكن في تسجيل الحوادث في حد ذاتها ، وانما في فهم اسبابها ومسبباتها ، دواعيها ونتائجها . لم يكن التاريخ بالنسبة اليه غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة لفهم ذلك الانقلاب الهائل الذي عاشه ، فاصطدم به ، وتألم كغيره لما شاهده من احتضار الحضارة الاسلامية ، فأراد ان يكشف عن القوانين التي تنشيء الحضارات وقيمتها . وكيف يتحقق هذا الكشف ما لم ينطلق من التاريخ أي من سجل الحضارات ؟ وهكذا ينقلب التاريخ الى مخبر ، أي الى خزان هائل من التجارب التي بفضل ما يسلط عليها من التحليل والتاويل ، تمكن من اكتشاف نواميس العمران ، او حسب اصطلاح ابن خلدون ( ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته (141) . فهناك اذن علاقة جدلية بين علم العمران المضمن في الكتاب الأول ، والتاريخ المودع في الكتابين الثاني والثالث : فبقدر ما تحكم المنهجية ، اعتداداً على علم العمران ، يضبط التاريخ بصفة تجنب من الوقوع في ( المغالط ) وتوحي بالثقة ، وبقدر ما تتوفر هذه الثقة في ضبط القضايا التاريخية ضبطاً يقي من ( المغالط ) . يمكن الاعتماد عليها لاستخلاص نواميس العمران ، تلك النواميس التي تدبر عجلة التاريخ وتوجهها .

فصلة الكتاب الأول في العمران - الذي اعتدنا ان ندعوه بالمقدمة - بالكتابين الثاني والثالث في

التاريخ . انما هي اذن صلة المخبر بما يكتشف به فيه من قوانين فالكتابان الأول والثاني لا يزيدان عن كونها المخبر الذي عمل فيه الفكر الخلدوني . فعثر على جملة من القوانين تكون علما جديدا ومستقلا بنفسه دعاه صاحبه علم العمران . اي انه اكتشف ما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية . فالكتاب الأول في العمران اذن - كما اكد ذلك صاحبه بصفة لا تقبل الشك . يحتوي على علم مستقل بنفسه . يجب . لا ان نفهمه ونحلله في حد ذاته فقط . بل ان نتابع ايضا بناءه بناء قائما بنفسه . كما يدعوننا الى ذلك واضحه في عبارة واضحة قائلا :

( ولعل من يأتي بعدنا . ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين . يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا . فليس على مستنيط الفن استقصاء مسائله . وانما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله . وما يتكلم فيه . والمتأخرون بلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى ان يكمل . والله يعلم وانتم لا تعلمون ) (142)

فابن خلدون قد اكتفى ( بتعيين موضوع العلم ) . وترك لمن يأتي من بعده مهمة متابعة البحث . وبعد قرون . تحققت رغبته : فهذه علوم الاقتصاد والاجتماع على اشد ما تكون من الازدهار والاستقلال بذاتها . والمستقبل مفتوح على مصراعيه أمامها .

وأما الكتابان الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر . فهما . كما سبق ان اوضحنا لا يزيدان عن كونها مخبرا . وهذا المخبر الخلدوني في حاجة اكيدة الى دراسة مستقلة . حتى تتمكن من معرفة دقيقة للمعطيات التي منها انطلق استقراء الباحث . ان تجربتنا الشخصية . وتجارب المؤرخين الذين استخدموا هذين الكتابين . وعمليات السبر التي قمنا بها . كل ذلك يحمل على الاعتقاد ان المخبر الذي عمل فيه ابن خلدون قد حوى الغث والسمين . فلم تكن اجهزته كلها في مستوى الغاية المنشودة . فالغريب اذن ان يكون ابن خلدون . انطلاقا من قاعدة ضيقة نسبيا وغير متينة دائما . قد استطاع ان يبلغ النتائج التي انتهت اليها . ويرثي الى القمة التي وصل اليها . وهذا ما قد لاحظته آرنولد توينبسي ( توفي في 22/10/1975 ) ( A. Toynbee ) . الذي سلك نفس السبيل . وانتهى الى نتائج لا تختلف في جوهرها عما اهتدى اليه ابن خلدون . فهو ينص : ( ان كل من يطالع مصنف ابن خلدون يملأه الاعجاب بقوة ولعان ذلك الفكر الذي استطاع ان يجني الكثير من ذلك المقدار من المعطيات التي توفرت لديه . غير ان الناقد الغربي المعاصر قد يشعر ان أسس ابن خلدون التجريبية كانت اضيق من ان تتحمل . أو تبرر . وزن تعميته البليغة (143) .

فان يكن اذن ابن خلدون قد جنى الكثير من السير . فذلك مما لا شك فيه . ولعل ذلك سرّ العبقريّة .

(142) المقدمة ج 4 ص 1475 - آخر آيتي 216 و 232 من سورة البقرة

(143) انظر : 475، 6. ed. 1955, III, A. Toynbee, A study of History,